

أصفهان

هانز غاوبه *

يقول الفرس (إصفهان نصف جهان) أي (أصفهان نصف العالم). وعلى الرغم من أن لغتهم لا تشكو من فقر في الأساليب البلاغية إلا أننا لا نعثر على قول قديم مثل هذا في حق مدينة إيرانية أخرى. وفي الحقيقة ما من مدينة إيرانية أخرى أعربت عن مثل هذا العناد والعزم على البقاء مثلما فعلت أصفهان؛ فخلال تاريخها خربت مرات عدة، وأعيد بناؤها. تقع أصفهان بين بحر قزوين والخليج الفارسي، وتعدّ ثاني أكبر مدينة في إيران، بعد طهران. ففيها توجد أكبر المقاولات الصناعية، وهي علاوة على ذلك مدينة تجارية مهمة ذات ألفين وخمسمائة عام من التاريخ.

1- موقع أصفهان

بإلقاء نظرة أولى على موقع المدينة قد لا يصدق المرء أن تجمعاً بشرياً كبيراً استقر في هذا المكان الذي تقع فيه أصفهان خلال آلاف السنين. وعلى خلاف المدن الإيرانية الكبرى تبريز وطهران ومشهد الواقعة في (أو على) طرف أقاليم فلاحية واسعة وجيدة السقي، أو مدينتي كيرمنشاه وهمذان الواقعتين على سفح الجبل الإيراني، ومن ثم تستفيدان من تساقطات وافرة، على خلافها تقع أصفهان على علو ألف وخمسمائة متر وتحيط بها الصحاري وشبه الصحاري. وفي هذا الحوض الواقع وسط السلسلة الجبلية الإيرانية يعتبر الاستقرار والفلاحة نشاطين ممكنين في أماكن معدودة جادت بها الطبيعة. وتعدّ الموارد المائية الكافية الشرط المسبق الأساسي للفلاحة والنمو الحضري في مثل هذه الظروف. وهذا ما وفره لأصفهان ومقاطعاتها نهر زاینده-رود الذي يتوفر على أعلى صبيب مائي من بين كل أنهار الأراضي الداخلية (القارية) الإيرانية. فبالصبيب الأدنى المقدر بحوالي ثلاثين متراً مكعباً في الثانية، يُعتبر زاینده-رود أساس وجود المدينة. إنه يوفر ماء يروي الحقول المحيطة بها، وماء تشربه ساكنتها. وفي هذا تشبه أصفهان ثلاث مدن/واحات أدت -مثلها- أدواراً مهمة في تاريخ الإسلام، ألا وهي دمشق في سورية وهرات في أفغانستان وسمرقند في أوزبكستان.

وعلى الرغم من أن الطبيعة حبت أصفهان حقاً، إلا أن هذه لم تغد بفضل الطبيعة وحدها مركزاً منيفاً على مدن إيرانية أخرى. ذلك أن موقعها في منتصف الطريق، تقريباً، بين المدن التجارية العظيمة دمشق وحلب غرباً وسمرقند وبخارى شرقاً، جعل منها مركزاً لتبادل البضائع والأفكار بين شرق العالم الإسلامي وغربه. لقد أهلها موقعها وسط إيران لتصبح عاصمة الإمبراطورية في ظل حكم سلالتين عظيمتين.

أهمية أصفهان

تجلت هاتانوظيفتان سوقاً تجارية عظيمة وعاصمة- في البازار والبنائيات البديعة مما منح أصفهان شهرة فرساي الشرق. والبازار -باعتباره ابتكاراً أصيلاً للعصور الوسطى الإسلامية- هو السمة الأولى البارزة المميّزة للمدينة الإسلامية الشرقية عن مدن كل الحضارات والحقب التاريخية الأخرى. ففي البازار تتضافر الصنائع والتجارة والأعمال المصرفية على نحو منظم. وهكذا تصطف على جنبات أزقته المَقبُوة المحلاتُ الحرفية وحوانيت الباعة بالتقسيت، وأبهاءُ تباع فيها سلع ثمينة، وخاناتٌ، وفناءات تُتخذ أماكن للبيع بالجملة والتجارة مع الأصقاع البعيدة؛ تشكل هذه كلها فضاءً تجارياً ومجمّعا معمارياً(1). إن نموّ المدينة والبازار مترابط في جميع أنحاء العالم الإسلامي، لكننا نلاحظ في أصفهان درجة عالية رائعة من الترابط. وإذا رغب المرء في تقصي نموّ أحدهما فيجب أن لا يغفل نموّ الآخر.

هكذا يبدو من المناسب التعامل مع نموّ أصفهان في منحنى تاريخي. وبسلوكنا هذا النهج يتحتم علينا أن نجيب عن عدد من الأسئلة الأساسية المتضاربة بحيث يمكننا إسهاب القول من حين لآخر في هذا التفصيل أو ذاك. أما الموضوعات الأهم التي تعيننا هنا فهي الشرايين الحيوية في المدينة، والطرق الرئيسية الرابطة بين أطراف الحاضرة، وبعبارة أخرى البازارات وكذا المؤثرات الأخرى التي تحدد الموقع. يجب أن نعزل هذه المؤثرات وأن نفحص أثرها في نموّ المدينة حتى القرن السابع عشر. أما المراحل التالية للقرن السابع عشر والتغيرات الهائلة الجارية اليوم فتقع خارج نطاق دراستنا.

2- نموّ أصفهان حتى القرن الثامن

لم ينجز أي تنقيب أركيولوجي في أصفهان، ومن ثم ليس بوسعنا سوى تخمين موقع غابايي/أصبهانا Gabae/Aspahana، أي السلف الأحميني لأصفهان(2). ففي القرون التي تلت عصر الأحمينيين ذكر هذا المكان في المصادر المكتوبة باسم أصبهان(3). ومن المحتمل أن هذه المستوطنة كانت تقع في مكان أصفهان الحالية، بما أن (من القرن الرابع الميلادي) عاصمتين أسستا داخل أصفهان بدءاً من القرنين السادس والسابع. وقد أشير إلى أصفهان أو إصفهان مكاناً أسقفاً في أعمال المجمع الكنسي النسطوري منذ الحقبة الساسانية (القرن الثالث إلى السابع للميلاد)(4). ظهرت أيضاً حروف ASP اختصاراً لأصفهان في النقود الساسانية منذ القرن الرابع وما تلاه(5).

1- يهودية وجاي

إن أول من زودنا بمعلومات تسمح لنا بإدراك كيفية نموّ أصفهان، إلى غاية القرن الثامن الميلادي، هم الجغرافيون والمؤرخون العرب الذين كتبوا في الحقبة نفسها وما بعدها. لقد غزا العرب المسلمون وفق هذه المصادر- المنطقة المحيطة بأصفهان في أواسط القرن السابع الميلادي فصادفوا مدينتين: يهودية ((مدينة اليهود)) و جاي. ويهودية هي سلف

أصفهان الحالية. أما ما يشهد على جاي القديمة فأطلال معدودة، وأنقاض رابية، وجسرٌ على نهر زاینده-رود يعود إلى العصر الوسيط، على بعد حوالي ثماني كيلومترات في الجنوب الشرقي من وسط أصفهان الحالية. واعتبر المصنفون العرب الذين استفادوا من المدونات والوثائق الفارسية العائدة إلى القرون الوسطى التي اندثرت منذ ذلك التاريخ، حين تعاملهم مع تاريخ إيران ما قبل الإسلام، اعتبروا يهودية أقدم المدينتين. ويُرجع سكانها اليهود الذين ما زال أحفادهم يعيشون في أصفهان أصولهم إلى زمن الأسر البابلي(6).

توجد المعلومات التي تزودنا بأفكار مبهمة عن هيئة جاي في مصنفات الجغرافيين العرب المنتمين إلى القرن العاشر، وفي مصنفات مؤلفين من القرن الحادي عشر هما مفروخت الذي صنّف كتاباً في محاسن أصفهان(7)، وأبو نعيم(8) المتوفي سنة 1038م، الذي أرّخ لعلماء أصفهان وأعيانها البارزين في كتابه (أخبار أصفهان). ويتضمن هذا المؤلف مقدمة تاريخية وطوبوغرافية طويلة، وهو أفضل مصدر طوبوغرافي لأصفهان قبل إسلامها وبعيده.

تورّخ بعض الروايات المذكورة في هذا الكتاب لتأسيس جايّ بأزمة خرافية ما قبل الإسكندر الأكبر، وغيرها بعصره. وتوجد كذلك روايات أخرى في كتاب أبو نعيم تعدّ أشدّ مصداقية. وتنسب هذه تأسيس جايّ إلى الشاهين الساسانيين بيروز 459-486 للميلاد، وخوسرو الأول 531-579 للميلاد(9). علاوة على ذلك نعلم -بوساطة أبو نعيم- أن جاي الساسانية لم تكن مأهولة باستمرار، وإنما استُخدمت ملجأً محصّناً لسكان المستوطنات المجاورة غير المحصّنة(10). أما الرأي الذاهب أحياناً إلى أن جاي كانت (على نحو نموذجي مدينة ساسانية مستديرة) فلا يمكن البرهنة عليه باعتماد المصادر المكتوبة(11). وبالفعل هناك بينات على أن المدينة الساسانية النموذجية لم تكن مستديرة بالمرّة، وإنما هي ذات هيئة أخرى مختلفة تماماً، كما أشيرَ إلى ذلك من قبل.

كانت لجاي أربعة أبواب هي باب خور وباب أسنس وباب تيرا وباب يهودية. وكانت أماكنها محدّدة بمواقع الشمس وفق فصول معينة(12). وفيما يتعلق بامتداد الأبراج وعددها في سور جاي يقدّم أبو نعيم معلومات متضاربة. وسبب ذلك استشهاده بمصادر مختلفة واحداً تلو الآخر دونما تمحيص. وفي عصره، أي مطلع القرن الحادي عشر للميلاد كانت لأسوار جاي -لا يحيل بالضرورة إلى جاي الساسانية- خطوط ارتفاع غير منتظمة. وهذا ما يمكن إدراكه بناء على القياسات التي يوردها أبو نعيم. أما أشدّ مجموعات القياسات تماسكاً في كتابه فهي تلك التي زوّدها عالم الرياضيات محمد بن لورا(13). وقد أفاد بأن محيط جاي يبلغ مائة وسبعة آلاف ديرة (قياس الديرة الواحدة ما بين 0.6 و 0.8 متر)، وكان عرضها اثنتين وخمسين وسبعمئة وألف (1752) ديرة، وطولها خمسمائة وألف ديرة (1500). ويلاحظ أن توزيع الأبواب في السور وعدد الأبراج في مقاطعه المختلفة كان غير منتظم كهيئة السور تماماً. وتختلف المسافة بين الأبواب، وكذلك عدد الأبراج في كل مقطع. وكان عدد الأبراج بين باب وآخر من ثمانية

عشر إلى خمسة وثلاثين برجاً. وكان مجموع الأبراج في أسوار جاي مائة.

كان خوسرو (531-579) قد شيّد بعض البنايات داخل أسوار المدينة. وذكر ابن رُستاه وهو جغرافي عربي ألف كتابه حوالي ثلاث وتسعمائة ميلادية- قلعة قديمة في جاي(14). وبحسب ابن النديم (903) عُثر على بعض الوثائق البهلوية القديمة هناك، وقد يوحى هذا بأننا ينبغي أن نفكر في جاي باعتبارها مركزاً إدارياً لمقاطعاتها، لا باعتبارها ملجأً محصّناً فحسب(15). والدليل الآخر على هذا يمثله وجود ميدان السوق، المذكور من قبل أبو نُعيم(16) ومفروخي معاً(17). ويقع هذا الميدان قبالة باب خور شمال جاي.

لموقع هذا السوق أهمية إذ يدل على وجود ميدان سوقٍ قرب الباب أعدّ له فضاءً مخصوص مفتوح في أزمنة ماضية مبكرة، ولا أتردد في القول زمن ما قبل الإسلام. ومن المحتمل جداً أن فلاحى أو مزارعى مقاطعات جاي كانوا يلتقون في هذا الميدان قبل الإسلام وفي صدره. يؤكد هذا، مرة أخرى، الوظيفة المركزية التي كانت للمدينة إزاء مقاطعاتها. فالى غاية القرن الثامن كان سكان أصفهان يخرجون إلى ميدان السوق للاحتفال بقدوم العام الجديد. وكذلك يقام موسم سنوي منتظم مرتبط بهذا المهرجان، حتى إن عضد الدولة البويهى (949-982) لشدة إعجابه به أقام في شيراز موسماً مماثلاً له(18).

بنى العرب، بعد الفتح الإسلامى لإيران، أول مسجد جمعة في ناحية أصفهان من جاي(19). لقد أملت اعتبارات منطقية واستراتيجية قرار بناء المسجد في جاي عوض يهودية. فبفضل تحصيناتها والأماكن المفتوحة المحصورة داخل الأسوار، وهي المجالات التي استعملت في عصر الساسانيين لإيواء اللاجئين في زمن الحرب وانعدام الأمن، كانت جاي أشد ملاءمة لىستخدمها العرب مخيماً عسكرياً. وخلال استقرار الأوضاع السياسية في إيران والاندماج المتزايد بين العرب والإيرانيين فقدت جاي أهميتها كثكنة للفاتحين.

2- خوشينان

نُقلت إقامة الحاكم من جاي إلى خوشينان بُعيد سنة سبع وستين وسبعمائة، وهي قرية تقع بين جاي ويهودية، حيث شيّد الحاكم أيوب بن زياد قصرًا وفي إزائه مسجد الجمعة على ضفة نهر فرّسان، وهو مجرى مائى يمكن تحديد موضعه بدقة(20). ويذهب بعضهم إلى أن موقع هذا المسجد هو نفسه موقع مسجد شايا الحالى(21)، وهذا أمر ليس بوسعى تعضيده أو تفنيده. وعلاوة على هاتين البنائيتين أمر أيوب ببناء بازار كبير على حواشى خوشينان في ما يقابل يهودية من حيث الاتجاه. وبموازاة هذا البرنامج الذي ترعاه الحكومة أنشئت بنايات كثيرة خاصة. وسرعان ما أصبحت منازل خوشينان ملاصقة لمنازل يهودية(22).

3- خوشينان ويهودية

نظراً لأن خوشينان نمت بموازاة مع يهودية فقد كانت خوشينان مجبرة على منافستها من

أجل الحفاظ على مكانتها الخاصة كمركز إداري وديني للمنطقة. وكانت للبازار الجديد أياد بيضاء على خوشينان إذ ساعد على اجتذاب الناس والسلع وجعل خوشينان الإسلامية المركز التجاري للوحدة الحضرية الجديدة. ولقد أفلحت بعض المدن التي أسسها المسلمون للغايات نفسها وفي ظل الظروف نفسها في أن تصبح مراكز من هذا القبيل، ما خلا خوشينان(23). لم تكن هذه عاجزة عن الحيلولة دون نمو يهودية وتوجيه جميع الأنشطة والمنشآت الحضرية والتعمير نحو الجنوب الشرقي فحسب، بل إن يهودية، مدينة اليهود، كانت في تلك الحقبة تتضح حيوية ونشاطاً بحيث ازدردت خوشينان في نهاية المطاف. وفي مطلع سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة كانت هذه العملية قد قطعت أشواطاً حتى إنه شرع في بناء مسجد الجمعة وهو الثالث في منطقة أصفهان- في يهودية، وهو المكان نفس الذي يقع فيه مسجد الجمعة اليوم في أصفهان(24).

4- جاي ويهودية

تؤكد بيئة نقدية نقل مركز النشاط في منطقة أصفهان من جاي إلى يهودية. فهناك نقود ضربت بين خمس وتسعين وستمائة (695) و ستة وأربعين وسبعمائة (746) عليها طابع دار سكة جاي، بينما تحمل النقود المتأخرة طابع دار سكة أصفهان(25).

يصنف الجغرافيون العرب في القرن العاشر جاي قرية صغيرة في منطقة أصفهان- يحكون عنها مختلف أنواع الأساطير القديمة، كما أنهم كانوا يدركون أهميتها السالفة. على أنهم يصفون يهودية بكونها أهم مكان في منطقة أصفهان. يصفون مدينتها وفيها مسجد الجمعة الكبير وسط بازار لا تتقطع فيه الحركة حيث تزوره كل يوم جموعٌ غفيرة تحمل بضائع من ممالك بعيدة وقريبة(26).

3- نمو أصفهان حتى سنة 1500م

1- المصادر

كانت طبيعة دراستنا لنمو أصفهان إلى حدود القرن الثامن عامة نوعاً ما. وسبب ذلك انعدام معطيات طوبوغرافية ملموسة بما أنه لم ينجز أي تنقيب أركيولوجي في جاي من قبل. ومع ذلك بدءاً من الزمن الذي نُقل فيه المركز الحضري إلى يهودية، أي إلى مركز أصفهان الحالية، حدث تغير حاسم. فعلاوة على المصادر الأدبية (المكتوبة) نتوفر اليوم على دليل آخر ألا وهو الهيئة الأصلية لتخطيط المدينة، وبدرجة أقل لدينا بعض البنايات. ولكن البنايات المحددة التاريخ بالفترة ما قبل سنة 1500 (الفترة التي تعيننا) التي حوفظ عليها في أصفهان قليلة العدد. بيد أن الهيئة الأصلية لتخطيط المدينة تسمح لنا باستنتاجات دقيقة عن الفترة ما قبل 1500 كذلك.

2- تخطيط أصفهان

لم تشذ أصفهان عن قاعدة تخطيط المدن الشرقية، كما أشرت إلى ذلك في الفصل الأول.

وهو تخطيط يتكون من أ) المحاور الكبرى للتواصل داخل الحاضرة، وهي المحاور التي تربط بين مركز المدينة والأبواب، وتوصل إلى الأحياء السكنية؛ ومن ب) أزقة متعرجة غير نافذة توصل إلى بنايات مفردة أو مجموعة بنايات. يكشف التحليل الجغرافي للخصائص الأساسية لتخطيط المدينة عن استخدام ثلاثة تصميمات أساسية في أصفهان، تتميز باختلاف وجهات محاورها الكبرى. ويعكس كل تصميم مرحلة من المراحل الثلاث المهمة التي عرفها تطوّر المدينة (27).

يوجد مسجد الجمعة والميدان القديم داخل أقدم هذه الطرز الأسيية، وهو الطراز المتميز بالطرق الذاهبة من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي ومن الجنوب الشرقي نحو الشمال الغربي. ويمتد المجال الموسوم بهذا الطراز الأسيي مجاوزاً مسجد الجمعة نحو الشمال الشرقي. ثمة احتمال كبير بأن يكون هذا هو موضع يهودية ما قبل الإسلام. وتوجد في جوار هذا المجال تلك الحقبة المبكرة من العمارة الإسلامية التي تمتد نحو الجنوب الغربي لمسجد الجمعة وجنوبه وشماله الغربي.

3- المسجد الكبير

شُرِع في بناء مسجد الجمعة، كما ذكرنا آنفاً، في سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة (773). ولكن لم يبق من هذه البناية والبنية التي جُدد بناؤها في القرن العاشر إلا التراب. نستطيع أن نتبين في البنية الحالية لمسجد الجمعة خمس حقب متفردة من نشاط البناء وعدة أطوار من الترميم (28). فقد أعيدت هندسة فناء المسجد بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر. ومنذ ذلك التاريخ أعيد ترميم الزخارف الخزفية باستمرار. ونجد خلف هذه الواجهات أجزاء كاملة من البناية يمكن تعرّف انتمائها إلى حقب تعمیرية محدّدة. وهكذا فالبناية المقببة في الشمال، وهي المسمّاة غونبادي-خاكي، بُنيت سنة 1089م بأمر من الوزير تاج الملك، وهو أحد الوجوه المشوّومة في بلاط السلاجقة. وتعاصر هذه وتمائلها، من حيث الأسلوب، البنية الكبيرة المقببة فوق المحراب قبالة غونبادي-خاكي في الصعيد الشمالي من المسجد. ولقد بنيت جميع الأبهاء -تقريباً- المحيطة بالفناء في النصف الأول من القرن الثاني عشر. وفي الحقبة التي شهدت كارثة الحريق الهائل بُني مسجد جديد بأكمله تقريباً. وخلال عملية البناء هذه حوّل بهو المسجد إلى بنية إيوانية مربعة أضحت منذ ذلك التاريخ الطراز النموذجي للمسجد الإيراني. وبين سنتي 1366 و 1376م بني بهو جديد للصلاة في الصعيد الشمالي الشرقي للمسجد قبالة محراب مكسوٍ بجص ناعم، ويعود تاريخ المحراب إلى سنة 1310م. أما المدرسة الواقعة في الصعيد الشرقي من المسجد، والتي تدعى جزء منها، فتعود إلى الحقبة نفسها هي والبهو الواقع في القسم الجنوبي من غونبادي-خاكي. وقد انتهت الحقتان الأخيرتان من بناء المسجد الجامع بأصفهان في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وفي سنة 1447م بني خلف الإيوان بهو مخصص للصلاة في فصل الشتاء. ولهذا البهو امتداد شمالي في بهو بني سنة 1548م تحت حكم الشاه عباس الأكبر.

4- الميدان القديم

يعتبر الميدان القديم ثاني عنصر مهم في تخطيط أصفهان العصور الوسطى. وتغطي هذا الميدان اليوم محلاتٌ حرفية بسيطة ومخازن. واستُخدم في الشمال سوقاً للفواكه والخضر. ويعد البازار في الشمال الغربي -بازار الشاه- جزءاً من المحور الرئيسي للبازار بين الميدان الجديد في الجنوب الغربي والمسجد الجامع في الشمال الشرقي. إنه متراص، أو يكاد، مع السور السلجوقي في الجنوب الشرقي للمسجد الجامع. وهكذا يمكن افتراض أنه يتبع اصطفاً البازار الموجود سلفاً في القرن الثاني عشر.

يقع بازار ريسمان على الحد الشمالي الغربي للميدان القديم. وقد غطيت التمديدات الواسعة اليوم لهذا البازار بسقوف خشبية. أما في الحقب السابقة فكان كله مغطى بقبب. وتجد تاريخ الانتهاء من بنائه في كتابة مؤرخة بـ 1640(29). وفيه أسست مدرسة كساه- غران، (مدرسة الخزف)، مؤرخة بـ 1694(30). ومن المحتمل أن تكون هذه المدرسة بُنيت في موقع مدرسة أخرى كانت شتّدت قبلها بقرن من قبل الشاه طهماسب (1524-1576)(31). ومادامت تتعدم أي بناية من العصر ما قبل الصفوي في هذا المجال، فقد يكون الميدان توسع في العصور الوسطى نحو الشمال الشرقي ليصل إلى الجوار المباشر لمسجد الجمعة.

وفي اتجاه الجنوب الغربي يُحدّ الميدان القديم طريقٌ كان جزءاً من توسيع في القرن التاسع عشر - لضريح هارون ولاية المؤرخ بـ 1513(32). وتشكل واجهة هذا الضريح حدّ الميدان في القرن السابع عشر. وربما قامت هذه البناية مكان بناية أقدم منها. وهكذا يمكننا افتراض أن الحدّ الجنوبي الغربي للميدان القديم في القرون الوسطى يقع قرب واجهة ضريح هارون ولاية.

وأخيراً يحد الميدان القديم من جهة الجنوب الشرقي ممرٌ أفسح الطريق لشارع نافذ حديث. في القسم الجنوبي الشرقي توجد ثلاث بنايات صفوية، من بينها مسجد علي، شيدت حوالي سنة 1515م(33). وفي الزاوية الشمالية الغربية من هذا المسجد صومعة سلجوقية أقيمت داخل البناية. تعيّن هذه الصومعة الحد الجنوبي الشرقي للميدان القديم في العصور الوسطى. وكانت تحيط بهذا الميدان مساجد ومدارس وقصور وبازار مزخرف، وقيسارية، وجناح موسيقى البلاط، نقاره-خانه. وقد كان بالإمكان رؤية معظم هذه البنايات في القرن السابع عشر، وإن كانت خراباً(34).

5- نموّ الميدان القديم

لما كان ميدان أصفهان القديم الأنموذج الأصلي للميدان الجديد -الذي بناه الشاه عباس الأول في القرن السابع عشر- فينبغي من ثم أن نسند له، في دراستنا، دوراً رئيساً في نموّ أصفهان. لا توجد في إيران بناية أخرى من العصور الوسطى بادية للعيان مماثلة لميدان أصفهان القديم؛ كما أننا لا نجد لهذا الميدان أو ما يماثله من البنايات أو صافاً في كتابات

تلك العصور. ومن ثم لن يفاجئنا تضارب الآراء حول تاريخ أصله وسيرورة تفصله الشكلي. ولحل مسألة الآراء المتضاربة، ربما ينبغي للمرء أن يبدأ بطرح سؤالين مهمين أولهما: لماذا يوجد الميدان القديم في وسط مدينة أصفهان القديمة؟ وثانيهما: لماذا أصبح مركزها الإداري والديني؟ يمكن تقديم جواب عن هذين السؤالين بفحص معنى كلمة الميدان عامة، وبالبحث في أصول وتطور الميدان القديم لأصفهان خاصة.

كان الميدان في الأصل حلبة لسباق الخيل. وأصل كلمة ميدان نفسها إيراني، ولها مرادف فارسي في أسبريس (35) (aspres). وفي الصيغة المركبة: ميدان أسفريس (=aspres) يمكن أن نجد الكلمتين في عربية العصور الوسطى الأدبية (المكتوبة) اسماً للميدان القديم في أصفهان (36). ومع ذلك يعني الميدان على نحو أعم (مكاناً، ساحة). ومن ثم يحتمل أن المكان الواقع قبل باب خور في جاي سمّي ميدان السوق. ولسنا ندري ما إن كانت تجري سباقات الخيول في هذا المكان. هذا أمر قابل للتصور، ولكن قد تكون في جاي أيضاً حلبة سباق مخصوصة، مادام اسم أحد أبواب جاي -نعني باب أسفيس- يبدو شكلاً محرفاً لباب أسفريس الذي قد يعني (باب ميدان سباق الخيل) (37). كانت الميادين تقع في ضواحي المدن الإيرانية والعراقية، وتُتخذ حلبات لسباق الخيل وميادين للعبة البولو. لدينا على ذلك حجة أدبية (مكتوبة) من القرن التاسع تفيد أن الميادين كانت تستعمل ميادين للبولو. وكانت توجد في الغرب أيضاً، نعني في دمشق وحلب مثلاً، ميادين في العصور الوسطى (38). ولما كانت سباقات الخيول لا تتم يومياً، فإن اتخاذ ميادين السباق أماكن مثالية للتجارة وانعقاد الأسواق (ميدان السوق مثلاً) أمر واضح. وهذا ما تدل عليه بينات جمّة (أدبية) مكتوبة من العصور الوسطى، أي الاستغلال التجاري لهذه الميادين (39). وكان ميدان أصفهان القديم، إلى حدود القرن الثامن، يقع على طرف المستوطنة. وعلى هذا النحو ما من سبب يحول دون تأريخ أصله صعداً إلى ما قبل الإسلام. لكن حدث تغير حاسم ناجم عن أنشطة البناء في القرن الثامن في خوشينان، إذ كانت الدور، وفق أبو نعيم، تبنى حول خوشينان إلى أن لاصقت دور يهودية (40). ونتيجة لنشاط البناء الجديد لم يعد الميدان في ضواحي يهودية وإنما في وسط الوحدة الحضرية الجديدة المكوّنة من يهودية وخوشينان (التي أضحت تسمى في القرن العاشر يهودية). هنا بني في القرن الثامن - في القسم الشمالي الغربي من الميدان مسجد الجمعة. ثم خلال نشاط البناء المكثف في القرن الحادي عشر، في جميع هذه المجالات الموصوفة بخطة الشارع الثاني، أصبح الميدان القديم بشكل لا رجعة فيه، ولزمن طويل تالٍ، مركز المدينة بدون جدال (41). يشدد إنغلبرت كامفر، وهو رحالة ألماني زار أصفهان سنة 1648م، على المكانة المركزية للميدان القديم بوصفه (ميداناً عريقاً وسط مدينة قديمة) (42). وفي أواخر القرن الحادي عشر، حين كانت أصفهان عاصمة الأمبراطورية السلجوقية العظيمة، انضافت إلى الوظيفتين الرئيسيتين للميدان (مكان لممارسة الرياضة والتجارة) وظيفة ثالثة أحدثها موقع أصفهان المركزي فأضحى المركز الديني والإداري للمدينة.

ظل الميدان القديم مركز المدينة حتى القرن السادس عشر، وبعدها بني الميدان الجديد

الذي صُمم على شاكلة الميدان القديم. فأصبح الميدان الجديد مركز المدينة واجتذب قسطاً مهماً من التجارة، ولاسيما تجارة السلع الثمينة. ومع ذلك استمر وجود الميدان القديم مركزاً ثانياً لأصفهان. وما زال حتى اليوم جلياً أن المحاور الرئيسية للتواصل داخل الحاضرة ما قبل وسائل النقل الحديثة- تلتقي عند ضاحية المدينة بفعل جاذبية الميدان القديم، لا بفعل منافسه المتأخر الميدان الجديد.

6- الأبواب والطرق الرئيسية في أصفهان

كانت هذه المحاور الرئيسية للتواصل داخل الحاضرة محاور العصور الوسطى أيضاً، لأنها لو كانت حديثة لما التقت عند الميدان القديم، وإنما الجديد. داخل سور القرن العاشر كانت أهم هذه الأبواب تقع على طول هذه المحاور، كما أن مواقع بعضها المجمع عليها محدّدة. على أن البحث المفصل في مواقع كل أبواب العصور الوسطى، كما حاول ذلك بعضهم، يبدو لي غير مجز. بل إن المحاولات المجهدة والمعقدة التي قيم بها لاستنباط تلك المواقع بناء على مادة متفرقة، تؤدي بالضرورة إلى نتائج موصومة بالشك والريبة والفوضى. يجب أن لا نفاجأ بهذا بتاتاً إذ لم تكن لأبواب مدينة العصور الوسطى أي وظيفة بعد في القرن السابع عشر. لقد نمت المدينة خارج أسوار العصور الوسطى، ولم يكن الصفويون يدافعون عن أمبراطوريتهم عند أبواب عاصمتهم، وإنما عند حدودها القصية، سواء في آسيا الوسطى أو العراق. وكانت المحاور الأربعة المشار إليها في أصفهان القديمة ما زالت، في بداية هذا القرن (العشرين)، تحف بها على امتدادات طويلة حوانيت ومحلات حرفية مكوّنة بازار المدينة (43). إن انتماء تلك المحاور إلى عصور عريقة في القدم يبينه كذلك واقع الترسبات المتجمّعة عبر القرون فتراوح علوّها من متر واحد إلى مترين فوق مستوى الفناءات في قسميها معاً. وفي سنة 1974م جرت أعمال الحفر لوضع نظام صرف صحي جديد في الجزء الجنوبي الغربي من بازار أصفهان، وهناك بإمكان المرء أن يشاهد، تحت سطح الأزقة، طبقة من الأنقاض سمكها أربعة أمتار. وعلى طول هذه الطرق الكبيرة بازارات مصفوفة بنيت في القرن العاشر (44). وما زال البازاران الواقعان في الشمال والشمال الغربي، بازار-إ مجلس وبازار-إ دار دأشت، محفوظين إلى حد ما. وأصبحت الطريق القادمة من الباب الغربي في اتجاه شرقيّ غربيّ جزءاً من المحور الرئيسي للبازار، بعد سنة 1600م. وقد كانت موصولة بطريق قادم من الباب الجنوبي الذي يقع، حوالي السنة 1000م، قرب تقاطع الطريقين، لكنها كانت في العهد الصفوي بعيدة نحو الجنوب. وهناك بازار آخر كان يقع في اتجاه شرق الميدان القديم، وهو المسمى بازار-إ غاز الذي خرب بسقوط رضا بهلوي. وفي الزاوية الواقعة في الشمال الشرقي من الميدان القديم توجد بقايا بازار آخر تمكن رؤيته على خريطة تعود إلى سنة 1924م وكذا على صور جوية قديمة (45). ويمكن اعتبار هذا الأخير تلك القيسارية القديمة أي (السوق الإمبراطوري القديم) الذي تحدث عنه شاردان في القرن السابع عشر (46). ولا توجد طريق تؤدي من الميدان القديم إلى الجنوب الشرقي. وهناك سببان محتملان لعدم عثورنا على طريق رئيسية نحو هذا القسم من المدينة: إما بسبب

الهدم الشامل أتى على كل شيء في العصور الوسطى المتأخرة، وإما أن كثافة السكان بين الميدان القديم والقلعة لم تكن أكبر مما هي في أماكن أخرى، وهو ما يبرر انعدام طريق؛ غير أن السبب الأخير أكثر احتمالاً من الأول. تسمح لنا المصادر الأدبية (المكتوبة) باستنتاج وجود عدد من البنايات الدينية (مدارس على الخصوص) ومنازل فخمة واسعة ذات بساتين، في المدينة الإسلامية الجديدة لأصفهان (47). وتقع هذه البنايات داخل الأسوار وكانت تعادل البساتين الكبيرة ذات القصور جنوب المدينة بقرب النهر، وهي التي تحدث عنها مفروخي طويلاً لكنه لم يكده يذكر معلومات طبوغرافية تخصها (48). وقد أشار رحالة من القرن السابع عشر هو ج. تيفينو إلى أن القسم الجنوبي الشرقي من المدينة أعيد بناؤه في العصر الصفوي، وأن بساتين كانت هناك قبل هذا العصر (مكان البنايات الوسطوية). هذا الاستعمال المكثف للجزء الجنوبي الشرقي من المدينة لم يكن يتطلب محوراً رئيسياً بين القلعة والميدان القديم في العصور الوسطى. وفي أواخر العصر الصفوي - حين كتب تيفينو مؤلفه - لن تطوّر مثل هذه الطريق لأن تدفق السلع والمارة كان قد جذبته الميدان الجديد سلفاً. من خلال حدّ طرق التواصل الرئيسية داخل الحاضرة ونقطة تقاطعها - الميدان القديم - عُزلت هذه الأجزاء التي شكّلت هيكل مدينة العصور الوسطى.

من هنا منشأ مجال البازار المركزي حول الميدان القديم الذي تشهد المصادر الأدبية (المكتوبة) بأهميته التجارية وعبقه الكوسموبوليتي (49). وعلاوة على هذا نمت بازارات صغيرة قرب أبواب المدينة، كما كانت على طول المحاور بازارات مصفوفة؛ وفي أحدها شاهد رحالة من القرن الحادي عشر ما لا يقل عن خمسين خاناً (50). وكانت تحيط بالمركز الإداري والديني والثقافي والتجاري في الميدان القديم ومحاور التواصل الرئيسية داخل الحاضرة الأحياء السكنية بمراكزها الفرعية وبناياتها الدينية الثانوية التي شيّدت قبل سنة 1500م، وهي مازالت قائمة ومبيّنة. على أن عدد هذه البنايات قليل ومن ثم لا يمكننا من الخروج باستنتاجات تفوق السالفة. والمسألة الوحيدة التي يؤكدتها موقعها داخل يهودية الأصلية أو قربها هي أن نواة المدينة كانت هنا، أي شمالي الميدان القديم. وقد أفلحت بفضل أزقتها المتعرجة وكثافة عمرانها وبيوتها الصغيرة في الصمود حتى في حقبات الأزمات الشديدة.

7- خلاصة

لقد حرم تغيير الأوضاع السياسية في إيران بعد أفول نجم الأباطورية السلجوقية العظيمة في أواسط القرن الثاني عشر، حرم أصفهان من وظيفتها كمدينة عاصمة ووجه ضربة قوية لاقتصادها المتوقع أساساً على التجارة مع الأقطار البعيدة. وفي سنة 1244م استولى المغول على المدينة؛ وفي عهدهم كانت أصفهان عاصمة إقليمية، وكان اقتصادها مازال مزدهراً، ولو أنه أشد تواضعاً مما كان في عصر السلاجقة. وبعد انهيار دولة المغول، في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، حكم المظفريون الإيرانيون أصفهان كما سيطروا على إيران الجنوبية بأكملها تقريباً.

كانت سنة 1387م، بالنسبة لأصفهان في العصور الإسلامية، علامة نهاية حقبة طويلة قاربت ثمانمائة سنة من الازدهار. فقد غزا تيمور المدينة وأمر جنده بنهبها، وقتل عدد كبير من سكانها في أثناء ذلك. وشهدت سنة 1414م عملية نهب ثانية، وفي سنة 1474م قيل إن أصفهان لم يعد يقطنها من الناس سوى خمسين ألفاً (51).

4- تطور أصفهان إلى حدود سنة 1700م

1- الشاه إسماعيل والشاه طهماسب

خلال نهضة الدولة الصفوية، أعيد بناء أصفهان في مطلع القرن السادس عشر من قبل الشاهين إسماعيل (1502-1524) وطهماسب (1524-1576). وقد أدمج هذان الصفويان بناياتهما في تخطيط أصفهان العصور الوسطى. ويبدو أن إعادة بناء وزخرفة الميدان القديم وتزيينه كان أهم ما شغلها. ففي الميدان القديم شيئا ما لا يقل عن خمس بنايات ومدرسة وخاناً (52)؛ ومن المحتمل أن تكون المدرسة والخان سلفي مدرسة وخان كساه غاران (53) في القسم الشمالي الشرقي من الميدان، وشيئا ضريح هارون ولاية (54) في الجهة المقابلة في القسم الجنوبي الغربي منه، ومسجد علي (55) في الزاوية الجنوبية الشرقية من الميدان وخاناً في شماله (56). إضافة إلى هذا يحتمل أن هذين الحاكمين شيئا مسجدين ومدرسة وحماماً على الطريق الذاهبة من الميدان إلى الجنوب الشرقي، ومجمعاً من خمس خانات، على الأقل، بين المسجدين (57).

2- الشاه عباس الأول: ميدان-إشاه

في شتاء سنة 1597م قرر الشاه عباس الأول شاه إيران ابتداءً من سنة 1587م- نقل عاصمته من قزوین في الشمال الغربي من إيران إلى أصفهان. حمل هذا القرار أصفهان، في ظرف سنوات معدودة، إلى أوج تطورها وجعلها عاصمة ذات مكانة دولية يحج إليها المبعوثون والتجار الأوروبيون وكذا أقرانهم من الشرق الأقصى.

في فترة قصيرة بدا أن عباس ومستشاريه وضعوا تصوراتهم الأساسية لكيفية إعادة بناء المدينة وتوسيعها. وقد قادت تخطيطاتهم نمو أصفهان صوب وجهات جديدة يمكن أن تقارن من حيث امتدادها مع تأسيس أصفهان الإسلامية في القرن الثامن.

قرر عباس ألا يقيم في المدينة القديمة بتاتاً، على خلاف السلاطين الأوائل الذين تعاقبوا على حكم أصفهان واتخذوا المدينة القديمة مقاماً أحياناً. وهكذا شيّد قصره في الطرف الجنوبي الغربي من مدينة ذلك الزمان. وفي هذا اتبع التوجهات المعروفة سلفاً في الحقبة السلجوقية، أي بناء المجمعات الملكية بقرب النهر (58). على أن عباس ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك إذ أنشأ مركزاً دينياً واقتصادياً جديداً على طرف مدينة القرن السادس عشر. وعلى هذا النحو أجبر أصفهان على النمو في اتجاهات جديدة.

لقد كانت نواة تخطيط عباس، مرة أخرى، ميداناً، لمّا كانت هذه الخطة مثالية في توحيد

الوظائف الأهم التي تؤدّيها المدينة كمرکز إداري وديني وثقافي وتجاري. ومع ذلك فقد أعيد ابتكار ما كان قد طوّر في الميدان خلال قرون، ولكن على نحو منظم يجعل التوزيع الفضائي للبنىات يسترشد بخطّاطة تنظيمية محكمة.

لنذكر الآن بـمميزات الميدان القديم. كانت نسبة طولهِ إلى عرضه ثلاثة إلى واحد، وتحيط به الأزقة التي تتخلل البازار، ويتماس الشارع الرئيسي المار منه مع الميدان. وتقع البازارات في جوانبه الضيقة. وبالقرب من البازار الملكي، القيسارية، يوجد نقاره-خانه، أي جناح موسيقى البلاط حيث يُنفخ في الأبواق وتُدقّ الطبول في ساعات معينة من اليوم كجزء من حفل البلاط. وكان مسجد الجمعة مجاوراً للميدان، وبقربه توجد مساجد أخرى ومدارس. وعلاوة على هذا كان في الميدان قصر ملكي.

لو نظرنا الآن إلى خارطة ميدان الشاه الصفوي الجديد لأمكننا تعرّف كل عناصر الميدان القديم، على الرغم من تغير مواضع البنىات. أضف إلى هذا أن أرضية ميدان القرن السابع عشر كانت مغطاة بالرمل، وضُربت فيه الخيم حيث تجري المعاملات التجارية. وفي أيام الجمع كان يعقد سوق أسبوعي لفائدة ساكنة قرى الريف المجاورة. وفي طرف الميدان خشبات منصوبة لأنه يُتخذ من حين إلى آخر ميدان بولو كذلك. وكانت الأشجار تصطف على جنبات الميدان، وما زالت، وقبلتها قناة جارية.

كانت خلف الأقواس المحيطة بالميدان، شرقاً وغرباً وجنوباً، أزقة بازارات فيها حوانيت ومحلات حرفية. وكان الغرض من السلع التي تباع هنا الاستجابة لحاجات البلاط. هنا تصنع مشغولات الجواهر والذهب والفضة، من عمل صائغي الفضة القادمين من فينيسيا ونورمبورغ، وسلعٌ جلدية بديعة الصنع، والمعدات اللازمة للسباق. وفي الطرف الجنوبي توجد حوانيت ومحلات حرفية، يشغلها بائعو الكتب ومسفروها، والوراقون وصناع الصناديق، وصانعو السروج. وفي الطرف الشرقي توجد حوانيت مختلف الصناعات الحرفيين. وفي الطرف الشمالي من الميدان مقاهٍ طوابقها العليا عبارة عن فنادق وبيوت دعارة(59). وفي أربعة مواضع وسط الطرفين الجنوبي والشمالي، وعلى الطرفين الشرقي والغربي خارج المركز بقليل، توجد بوابات زاهية الألوان تكسّر رتابة تتالي الواجهات. تؤدى البوابة في الطرف الجنوبي إلى مسجد الشاه، المسجد الجامع (الجديد)، كما كان يسمى في عهد الصفويين(60). وقد شرع في تشييده في أثناء حكم عباس الأول وانتهت به الأشغال سنة 1631م(61). وفي الطرف الشرقي من الميدان توجد بوابة مسجد آخر، مسجد لطف الله. وقد شرع في تشييده سنة 1602م وانتهت به الأشغال سنة 1618م(62).

3- مجمع القصر

يوجد القصر الذي اتخذه عباس الأول وخلفه للاستقبال قبالة مسجد لطف الله، على الطرف الغربي من ميدان-إشاه، المسمّى قبو عِل أي الباب العالي. وبحسب التقليد المحلي أنشئت البناية مكان جناح تيموري كان يقيم فيه عباس الأول قبل أن يتخذ أصفهان

في القرن السابع عشر كان قبو عل المدخل إلى المجال الفسيح الذي كان مجاوراً للميدان من الجهة الغربية. وقد توسع جهة الغرب حتى شارع شتهار باغ. وفي مجال القصر هذا كانت المطابخ وسقائف الخزن، وأقفاص الدجاج، وبنائات الحريم، والأحياء الخاصة بإقامة الأسرة الملكية، وأجنحة في بساتين فسيحة أنشأها عباس الأول وخلفه. وهي الأجنحة التي قدم لنا الرحالة الأوروبيون في القرن السابع عشر أوصافاً مفصلة عنها (64). وقد حُفظ منها جناحان هما شهال-سوتون (65) و هشت-بهشت (66).

في غرب وجنوب مجال القصر الملكي على طرفي شهار باغ، وعلى طرفي النهر كذلك كانت هناك دور فخمة للحاشية أمر عباس الأول ببنائها في ذلك المكان. ويؤدي شهار باغ الذي يخترق القطاع الحكومي إلى أحد أجمل الجسور في العالم، جسر علي ورددي خان. وقد كان بانيه علي ورددي خان أحد أقرب رفاق الشاه عباس الأول (67). أما فيما يلي هذا الجسر فيؤدي شهار باغ إلى إقامة ملكية ريفية ضخمة هي هزار جريب؛ وقد شكلت هزار جريب خلفية رائعة المنظر لشهار باغ (68)، وذلك بفضل موقعها على مرتفع. وفي غرب هزار جريب أنشأ الشاه سلطان حسين آخر الحكام الصفويين، حوالي سنة 1700م، بستان قصر ضخماً وفسيحاً هو فرح آباد (69). إلا أن المنشأتين اندثرتا معاً.

أمر عباس أيضاً ببناء مستوطنة جُلفه الجديدة جنوب زاینده-رود. وهنا وطن الأرمينيين المستقدمين من جُلفه ومن أماكن أخرى من أرمينيا. وقد نقلهم عباس إلى هذا الموضع لأسباب استراتيجية واقتصادية، إذ أراد خلق حزام من الأرض الليباب في الشمال الغربي من إمبراطوريته بقصد حمايتها من أطماع العثمانيين. وكان يريد من الأرمينيين الإسهام في الحيوية الاقتصادية للمدينة. (من المحتمل أن التجارة مع الأوروبيين كانت في معظمها محصورة بين أيدي الأرمينيين) (70).

4- البازار شمال الميدان الجديد

البازار شمال الميدان الجديد يقع إلى الجنوب من المجال الذي تلتقي عنده المدينة ما قبل الصفوية والمدينة الصفوية. وما أشبه البوابة الأثرية لهذا البازار ببوابة مسجد الشاه الواقع قبالة على الطرف الجنوبي الأقصى من ميدان الشاه (71). ومع ذلك كان مظهر البازار مختلفاً نوعاً ما في عصر الصفويين. فقد كانت في جانبه شرفات وخانه نقاره، أو جناح موسيقى البلاط حيث كما وصف ذلك رحالة من القرن السابع عشر - : (يلعب في كل مساء عند الغروب ومنتصف الليل كثير من الناس بالأبواق، وطبول ذات أحجام كبيرة، وأبواق ذات أشكال غريبة. وينتج عن ذلك ضوضاء مروعة. لا شيء محبب أو ممتع في هذه الموسيقى إلا إذا قورنت بقرع الأجراس) (72). يلج المرء عبر البوابة إلى بازار للتخزين، القيسارية. وكانت هذه السوق تخضع لسلطة الملك؛ سوق بيعت فيها منسوجات رائعة في القرن السابع عشر. وفي وسط هذا الزقاق قبة عالية، توجد في أسفلها من ناحية اليمين دار السكة الملكية؛ أما نحو اليمين فيلج المرء خان الشاهي الذي لا تسر حاله

كانت في هذا الخان، وهو الأكبر في المدينة، مائة وأربعون غرفة مختلفة أحجامها من طابق إلى آخر. وفي نهاية القرن السابع عشر كان تجار الأثواب القادمون من تبريز وقزوين وأردبيل والهند يشغلون غرف الطابق الأرضي، وفي الطابق العلوي نجد حوانيت المجوهراتيين، وصائغي الفضة، والنقاشين ومحلاتهم الحرفية.

ويوجد في شمال خان الشاه خان مماثل حالته أقبح من حال الأول. وتقسم المجال الواقع في شرق هذين الخانين ساحات تخرقها أزقة بازار تلتقي تحت قبة عالية، تسمى شاهار-سو.

على الرغم من أن القسط الأوفر من أعمال الترميم أنجزت منذ عصر الصفويين فما زال بإمكاننا تعرّف التخطيط الأساس في عهد عباس الأول. بل إن بإمكاننا تمييز هذا الجزء من البازار المنتمي إلى فترة حكمه تمييزاً يجعلنا قادرين على تحديد مجال البناية في الزمن ما قبل عباس الأول. يشمل التخطيط الأصلي للبازار طريقتين يتجهان شمالاً وجنوباً ويتقاطعان مع ثلاثة تتجه شرقاً وغرباً. وفي الساحات التي تشكلها هذه الأزقة خانات، كما هي الحال اليوم. وفي الأصل استعمل الزقاق المتخذ اليوم بازاراً لتزويد حمام الشاه بالوقود ودار السكة بما يلزمها. ويتصل نظام أزقة البازار هذا بمحور جنوبي أصلي من المدينة في أربع نقط.

كان في شمال هذا البازار - المسمى ككل القيسارية في القرن السابع عشر - مستشفى يليه خان شيده عباس الأول لتوفير التمويل للمستشفى. ومنذ ذلك التاريخ لم يعد للبنائيتين من وجود.

وبعيداً نحو الشمال بنى جرشي-باشي أحد أمراء عباس مسجداً وخاناً، وفق وجهة خطاطة الشارع الثاني العائد إلى بدايات العصور الوسطى (73). ويعد الشارع 209 أقدم محور غربي في المدينة، وفيه حُفظت بوابة مسجد من القرن العاشر (74). ويوجد بما لا يزيد عن خمسين ومائة متر، شمال شرق خان جرشي-باشي، مسجد بُني في عهد الشاه طهماسب. يدل هذا كله على أننا نوجد في مجال بُني في حقة تعود إلى ما قبل عباس الأول. ويتقاطع التخطيط الذي بدأ في الأصل من ميدان الشاه مع الطراز الأقدم بعيداً نحو الجنوب، مادام قد بُني هنا من قبل خان متطابق مع وجهة ميدان الشاه.

5- التقاطب الثنائي ميدان قديم-ميدان جديد

يميز الطراز الثالث من الشوارع - وهو الطراز الأقدم - تخطيط الشوارع في ميدان الشاه، أي الطراز الصفوي الذي يمكننا تعرفه في أصفهان. وهو طراز نجده كذلك في القطاع الجنوبي الغربي من المدينة في ذلك المجال الذي نعلم أنه حُرّب في عصر ما قبل الصفويين. ولما كان طراز الشوارع الصفوي سائداً غرب الميدان القديم كذلك فقد نفترض أن خراباً شديداً حدث هنا أيضاً في الفترة ما قبل الصفويين. ويمكن ملاحظة تعاضل

تخطيطات الطرق الثلاثة في مجال البازار بأكمله. فإلى حدود التقاطع شمال بنايات جَرشي باشي يتجلى الطراز الأول للشوارع. ويهيمن الطراز الأول في الاتجاه شمال-جنوب، والثاني في الاتجاه شرق-غرب. وفي هذا المجال توجد نقطة الاتصال بين حقل جاذبية الميدانين القديم والجديد. ما كان الميدان القديم بقادر على تحقيق هذا الإنجاز لو لم يصبح المركز الحضري الوحيد في أصفهان. ويرجع هذا في نهاية المطاف إلى حقيقة أن المسجد الجامع القديم استمر في الحفاظ على كونه -بغض النظر عن المسجد الجامع الجديد في الميدان الجديد- أهم مسجد في المدينة يستقطب حشوداً جمّة إلى مجال الميدان القديم. تبرز البنايات التي أنشئت بين الميدانين القديم والجديد هذا التقاطع الثنائي (75) الذي لم يكن مرمى عباس الأول، كما تشهد على ذلك مصادر معاصرة؛ أما نيته فقد كانت تحويل وجهة النشاط الاقتصادي، قدر الإمكان، من الميدان القديم إلى الجديد لأن عباس الأول كان يجني منافع من الحوانيت والخانات التي شيدها فيه (76).

من حسن الحظ أن هذا النقل الحاسم لمركز الجذب لم يحدث لأن هذا التقاطع الثنائي (بين الميدانين القديم والجديد) أدى إلى اندماج عضوي وقار للمدينة الصفوية الجديدة في المدينة القديمة ما قبل الصفوية. وتمكنت الوحدة الحضرية الجديدة من اجتياز أزمة حادة من حجم تلك التي وقعت سنة 1722م حين استولى الأفغانيون على أصفهان. نما بازار أصفهان، بفعل هذا التقاطع الثنائي، على الجانبين وظل حتى اليوم جسراً بين الميدانين القديم والجديد.

تجلّت نتيجة تداخل حقل الجاذبية هذين في إجبار مجالي طرازي الشارعين الأول والثاني الطراز الثالث، بوجهته الخاصة 346° على اقتحامهما. ويمثل هذا الطراز 346° موضوع عنايتنا اللاحق والأخير.

6- طراز الشارع الصفوي

يعني السؤال عن منشأ هذا الطراز إثارة السؤال المتضارب الذي مفاده: لماذا كانت لميدان الشاه وجهته الغربية التي سار على هديها طراز الشارع الصفوي بأكمله؟ والسؤال الذي ينبغي لنا طرحه هو التالي: هل اتخذ قرار توجيه ميدان الشاه على هذا النحو بدون ضغوط خارجية أو أن توجيهه كان محدداً مسبقاً بشوارع وبنايات موجودة سلفاً؟

يمكن أن يُستدل على أن القرار اتخذ دونما ضغوط خارجية بالاستناد إلى المجال الضخم الذي غطاه تخطيط ميدان الشاه إذ لم ينحصر في الميدان والبازار المجاورين له وإنما تمطت بعيداً نحو الغرب والشمال. وعلاوة على هذا قُدمت اعتبارات جمالية كبراهين (77).

ليس مفاجئاً أن تكون لميدان الشاه الوجهة نفسها التي للمصطبة الفسيحة في بريبوليس عاصمة الأخمينيين، ومن المحتمل أن هذه صُممت وفق حسابات فلكية.

في مقابل الاختيار الحر لوجهة 346° فيما يخص ميدان الشاه، قدم بعضهم الطراز ما

قبل العصر الصفوي الذي تسامح بشأنه عباس الأول برهاناً، أي حدود البساتين والكوشات والأزقة الضيقة المحيطة بها(78). قد لا يخلو هذا من صواب، بيد أن البساتين والكوشات ما كان لها -بالتأكيد- أن تعترض رغبة عباس الأول في منح ميدانه وجهة أخرى ربما كان قد اختارها. أما ما كان اعترضه حقاً فهو المحور الجنوبي للمدينة ما قبل الصفوية، وهو محور يسير بموازاة ميدان الشاه. ومن سماته أنه كان محوراً أصفهان الأشدّ زحمة وحركية. فعلى طول هذا الشريان تنساب الحركة نحو الجنوب ومنه، وعلى الخصوص نحو شيراز. لقد تمدد البازار جنوباً طوال هذا المحور في اتجاه ميدان الشاه، قبل حقبة حكم عباس. ينساب هذا المحور جنوب دَرَوَزَه أشرف، وهو الباب الجنوبي الغربي الذي يُحتمل احتمالاً أنه عيّن حدود مجال العصور الوسطى المبني في خط مستقيم يبلغ حوالي مائة متر شرق ميدان الشاه، خلل البساتين نحو جسر كان سلف جسر خواجو. وفي هذا المحور شيّد الباب الجنوبي الجديد المسمى دَرَوَزَه حسن أباد(79).

يُبرهن المسار الحالي للمحور الجنوبي على سلامة هذه النظرية. فاندماجه، شمال ميدان الشاه، في مجمّع القيسارية يبدو صعباً على الإدراك واصطناعياً. وتبيّن الدراسة الشاملة لعمارة هذا المجال أن الصلة بين المحور الجنوبي ومركب القيسارية خضعت لإعادة تشكيلٍ مستمرة(80). يمر المحور الجنوبي، جنوب الميدان، عبر بناية إمام زاده أحمد حيث تثبتت كتابة سلجوقية(81)، وتلك إشارة قوية إلى أن المحور شدّق طريقه هنا قبل العصر الصفوي.

أخيراً، يُعدُّ بازار شاه مقصود - الذي بني في حقبة الشاه عباس الأول - القابع في الزاوية الجنوبية الشرقية من ميدان الشاه بيّنة على أن طريق المحور الجنوبي كانت تمر شرق هذا الميدان. وقد كانت توجد -وجوباً- صلة مماثلة على الزاوية الشرقية من ميدان الشاه، وإلا فإن الموقع اللامنطقي وغير المجدي لتمشاه سابق شمال مدرسة عبد الله غير قابل للتفسير.

الحواشي

(* بروفيسور من ألمانيا، جامعة تيوبنغن.

Cf. E. Wirth, "Die orientalische Stadt. Ein Ueberlick aufgrund-1 juengerer Forschung zur materiellen Kultur," Saeculum, 26 (1975), 45-94, 83.

Ptolemy: Geography, VI, 2 and 4.-2

J. Marquart, Eransahr nach der Geographic des Ps. Moses Xorenac'i 3-(Abhandlungen der Koniglichen Gesellschaft der

Wissenschaften zu Goettingen, Phil.-hist. Kl. N.F. Ill, 2) (Berlin, 1901), 27-30.

J. Marquart, loc. cit.-4

R. Goebel, "Aufbau- der Muenzprägung," F. Altheim und R. Stiehl,-5 Ein asiatischer Staat (Wiesbaden 1954), 298 ff.

Cf. G. Le Strange, The Lands of the Eastern Caliphate (3London,-6 1966) 202-207.

7 - مفروخي، مفضل بن سعد، كتاب محاسن أصفهان، (طبعة) ج. الحسين، طهران 1312/1933م.

8 - أبو نعيم، محمد بن عبد الله، كتاب أخبار أصفهان، (طبعة) س. ديدرين (ليدن، 1934م).

9- أبو نعيم، مرجع سابق، ص 15.

10- أبو نعيم، نفسه.

L. Golombek, "Urban patterns in pre-Safavid Isfahan," Iranian-11 Studies, 7 (1974), 18-44, 23.

وانظر أيضا: ابن الفقيه، أحمد بن محمد، كتاب البلدان، دوجيه (لايدن) 1885م، ص 292. والشكل الدائري للجاه ذكرت ابن رسته، أحمد بن عمر، العلائق النفيسة، تحقيق م. دوجيه (لايدن) 1998م، ص 160.

12- أبو نعيم، نفسه.

13- أبو نعيم، نفسه، ص 16.

14- ابن رسته، مرجع مذكور، ص 161.

15- ابن النديم، محمد بن أبي يعقوب، كتاب الفهرست، (طبعة) ج.ل. فلوغل (لايبزيغ، 1871-1872)، ص 240.

16- أبو نعيم، مرجع مذكور، ص 15.

17- مفروخي، مرجع سابق، ص 92.

18- نفسه، ص 93.

19- نفسه، ص 42.

20- أبو نعيم، مرجع مذکور، ص 16.

L. Golombek, op. cit., 24.-21

22- أبو نعيم، مرجع مذکور، ص 16.

Cf. E. Reitemeyer, Die Stadtegründungen der Araber im Islam -23
den nacharabischen Historikern und Geographen (Miinchen,
1912).

24- أبو نعيم، مرجع مذکور، ص 17.

J. Walker, A Catalogue of the Arab-Byzantine and Post-Reform -
25 Umaiyyad Coins (London, 1956), LX f.; S. Lane-Poole, Catalogue
of the Oriental Coins

in the British Museum, I (London, 1875), 227-247.

G. Le Strange, loc. cit. -26

Cf. H. Gaube and E. Wirth, Der Bazar von Isfahan (Beihefte zum -
27 Tuebinger

Atlas des Vorderen Orients, Reihe B, Nr. 22) (Wiesbaden, 1978).

A. Godard, "Historique du Masdjid-e Djum'a Isfahan," -28

Iran, 1 (1936), Athar-e

213-282; E. Galdieri, Isfahan: Masgid-i Gum'a. Restorations, I, 1
and I, 2 (Rome, 1972-1973).

H. Gaube and E. Wirth, op. cit.-29

L. Hunarfar, Ganjinah-yi athar-i tarikhi-yi Isfahan (Isfahan,-30
1344/1966), 652-656.

Gaube and E. Wirth, op. cit.-31

A. Godard, "Isfahan," Athar-e Iran, 2 (1937), 6-176, 63-69; L.-32
Hunarfar, op. cit. 320-369.

A. Godard, op. cit., 69-72; L, Hunarfar, op. cit., 369-379. -33

J. Chardin, Voyages en Perse et autres lieux de l'Orient, vol. 8 -34

(Amsterdam, 1711), 146.

See also A. Godard, op. cit., 14.

E. Herzfeld (edG . Walser) The Persian Empire (Wiesbaden, 1968),-35 22f.

36- ياقوت، يعقوب بن عبد الله، معجم البلدان (طبعة) ج. فوسه تَنْفَلد (لاييزيغ، 1866-
IV، 713 (1873).

See above p.-37

E. Herzfeld, Inscriptions et monuments d'Alep (CIA, 2me partie:-
38 Syrie du nord) (Cairo 1955), 19f.

E. Herzfeld, loc. cit.-39

40- أبو نعيم، مرجع مذكور، ص16.

A. Godard, op. cit., 13 f. -41

E. Kaempfer, Amoenitatum exoticarum politico-physico-
medicarum, fasciculi V (Lemgo, 1712), 169.

C.f. the lithographed map of Isfahan compiled for Riza-Khan in -
43 1302/1924, and H. Gaube and E. Wirth, op. cit.

44- أبو معين، ناصر خسرو، سفر نادمة، د. ت. دبرسياجه، طهران 1344-1966م،
ص122.

E.F. Schmidt, Flights over Ancient Cities of Iran (Chicago, 1940),-
45

pi. 27. For the map cf. n. 43

J. Chardin, op. cit., 146.-46

47- مفروخي، مرجع مذكور، ص 83، وياقوت، مرجع مذكور، I ص677.

48- مفروخي، مرجع مذكور، ص53-56.

49- مفروخي، مرجع مذكور، ص87؛ المقدسي، محمد بن أحمد، كتاب أحسن التقاسيم
في معرفة الأقاليم (طبعة م. دي غوجي (ليدن 1906) ص398.

50- ناصر خسرو، سفر نادمة، نفسه.

51- توجد الخطوط العريضة لتاريخ أصفهان في أك. س. لامبتون -97, IV, E12, 105.

. J. Chardin, op. cit., 146. -52

Cf. H. Gaube and E. Wirth, op. cit., nos. 360 and 361. -53

Cf. n. 32. -54

Cf. n. 33 -55

H. Gaube and E. Wirth, op. cit., no. 287. -56

H. Gaube and E. Wirth, op. cit., nos. 237, 260-262 and 267 -57

58- مفروخي، مرجع مذكور، ص 53-56.

59- أحسنُ أوصاف ميدان الشاه في القرن السابع عشر تجدها في ما يلي:

J. Chardin, op. cit., 43-50; C. de Bruin, *Reizen over Moskovie door Persie en Indie* (Amsterdam, 1714), 147 f.; A. Olearius, *Vermehrte Moscowitische und Persianische Reisebeschreibung* (Schleswig, 1656), 554-558; J. B. Tavernier, *Les six voyages de Jean Baptiste Tavernier, en Perse, et aux Indes* (Paris, 1679), I, 442-447.

Iskandar Munshi, *Tankh-i alam ara-yi Abbasi*, (ed) I. Afshar -60
(Tehran, 1334-1335/1956-1958), 831.

A. Godard, op. cit., 107-116; L. Hunarfar, op. cit., 427-464. -61

A. Godard, op. cit., 96-99; L. Hunarfar, op. cit., 401-415. -62

A. Godard, op. cit., 80-88; L. Hunarfar, op. cit., 416-426. -63

[1] E.g. J. Chardin, op. cit., 68-83. -64

A. Godard, op. cit., 116-120; L. Hunarfar, op. cit., 457-474. -65

A. Godard, op. cit., 147-149; L. Hunarfar: op. cit., 487; I. -66

Luschey-Schmeisser,

The pictorial tile cycle of Hast Behest in Isfahan and its iconographic tradition (IsMEO Reports and Memoirs 14) (Rome 1978).

A. Godard, op. cit., 95 f. -67

E. E. Beaudouin, "Ispahan sous les grands chahs (XVI^e siecle)," -68

Urbanisme, II, 10 (1933), 1-47, 32-34; L. Hunarfar, op. cit., 489-493.

E. E. Beaudouin, op. cit., 34-36; L. Hunarfar, op. cit., 722-725.-69

J. Carswell, New Julfa (Oxford, 1968). -70

71- تجد أوصافاً لجميع بنايات البازارات في:

H. Gaube and E. Wirth, op. cit., part C

وقد نُشرت خريطة وظيفية وتطورية لبازار أصفهان رسمها المؤلفان في:

Tuebinger Atlas des Vorderen Orients (TAVO), map A IX, 9.4 (Wiesbaden, 1977).

J. Thevenot, op. cit., 116. -72

73- انظر أعلاه.

H. Gaube and E. Wirth, op. cit., no. 222. -74

Cf. TAVO, map A IX, 9.4. -75

J. B. Tavernier, op. cit., I, 441. -76

D. Wilbert, "Aspects of the Safavid ensemble of Isfahan," Iranian -77 Studies, 7 (1974), 406-411.

L. Golombek, op. cit., 31 f. -78

Cf. TAVO, map A IX, 9.4, 'H'. -79

H. Gaube and E. Wirth, op. cit. -80

L. Hunarfar, op. cit., 669. -81

. H. Gaube and E. Wirth, op. cit., no. 30-82